آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن قسم الدراسات والمجلة

بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

دبي - ص.ب. ٥٥١٥٦

هاتف ٢٦٢٤٩٩٩ ٤ ٩٧١+

فاكس ٢٦٩٦٩٥٠ ٤ ٩٧١+

دولة الإمارات العربية المتحدة

السنة الثانية عشرة : العدد السادس والأربعون - جمادى الأولى ١٤٢٥ هـ - يوليو (تموز) ٢٠٠٤ م

رقم التسجيل الدولي للمجلة

ردمد ٢٠٨١ - ١٦٠٧

المجلة مسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم ٣٤٩٣٧٨

هيئة التحرير

مدير التحرير

د. عز الدين بن زغيبة

سكرتير التحرير

د. يونس قدوري الكبيسي

هيئة التحرير

أ.د. حاتم صالح الضامن

د. محمد أحمد القرشي

أ. عبد القادر أحمد عبد القادر

الاشتراك السنوي

	داخل الإمارات	خارج الإمارات
المؤسسات	١٠٠ درهم	١٥٠ درهماً
الأفراد	٧٠ درهماً	١٠٠ درهماً
الطلاب	٤٠ درهماً	٧٥ درهماً

المقالات المنشورة على صفحات المجلة تعبر عن آراء كاتبيها ولاتمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو المركز الذي تصدر عنه

يخضع ترتيب المقالات لأمور فنية

الفهـــرس

الإفتتاحية

■ ومما لا يعلمون

مدير التحرير ٤

المقالات

■ آيات الكرامـات في القرآن الكريم
دراسة تحليلية

أ. د. إدريس سليمان محمَّد ٦

■ أثر مكاتبات الرسول ﷺ في ظهور الوعي التدويني

د. عبد الخضر جاسم حمادى ١٩

■ إعلامنا الحائر بين الاغتراب الحضـاري والعودة للذات

د. مصطفى محمد طه ٢٨

■ أحكام المعاهدات الدولية في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي (دراسة مقارنة)

د. محمد ضياء الحق ٤١

■ رسائل البلغاء وأثرها اللغوي والفكري «رسالة علي ابن منصور الحلبي» المعروف بابن القارح نموذجًا

د. محمد الحجوي ٦٥

■ في أصل اللغة وتطورها عند أبي نصر الفارابي

د. الحسن الهلالي ٧٤

■ شاعـر من ليبيـا { محمَّد الهقناري }

د. الطيب علي الشريف ٨٣

■ مظاهر اقتصادية في عصري المرابطين والموحدين بالأندلس والمغرب

د. عبد الله محمد حسين الزيات ١٠١

■ الشاعر الشهيد ابن الشاعر الشهيد الحسين بن رواحة الأنصاري ٥١٥ –٥٨٥ هـ

أ.د. ناظم رشيد ١٢٣

■ المصطلح اللغوي في رسالة الغفران
لأبي العلاء المعري

د. علي زويـن ١٣٥

■ توسع الكون بين الغزالي وابن رشد

د. محمد باسل الطائي ١٤٧

التعريف بالمخطوطات

■ وسائل الإيضاح العلميّة في المخطوطات الإسلامية
دراسة في علوم الحياة

د. محمد حسن الحمود ١٦٠

■ إسهامات أهل اليمن في علم الطب والطب البيطري
– دراسة في التراث العلمي العربي –

أ. د. محمد كريم إبراهيم الشمري ١٧٣

تحقيق المخطوطات

■ جزء فيه أجوبة مشايخ الإسلام رحمهم الله

بـدر العمرانـي ١٨٨

في أصل اللغة وتطورها

عند

أبي نصر الفارابي

الدكتور/ الحسن الهلالي

فاس - المغرب

تمهيـد:

يتناول هذا المقال موضوعًا، نرى أنه لا يزال في حاجة إلى مزيد بحث وفضل تأمل. يتعلق الأمر بالنظر في أصل اللغة في الفكر العربي الإسلامي القديم. وسوف نقتصر على رأي أبي نصر الفارابي؛ لاعتقادنا أنه يتميز عن غيره من مفكري الإسلام الذين بحثوا الموضوع نفسه، بعمق في الطرح، وبعد في الرؤية، وجرأة في الرأي.

إنّ موضوع أصل اللغة، أوحي هي وإلهام، أم تواضع واصطلاح، من الموضوعات التي شغلت الفكر الإنساني منذ القديم. اهتم به الفكر العربي الإسلامي، وارتبط عنده بمسائل عقديّة ولغويّة. ولقد كان يتجاذب الرأي في هذا الموضوع توجهان رئيسان:

- توجه يقول إن أصل اللغة الوحي والإلهام، وهو رأي بعض اللغويين كابن فارس والأشاعرة من المتكلمين. وتعود أصول هذا الرأي إلى أفلاطون.
- توجه يرى أن أصل اللغة التواضع والاصطلاح. وهو مذهب أهل النظر والمعتزلة. وتمتد جذور هذا الرأي إلى أرسطو. ويمثل الفارابي، في الثقافة العربية الإسلامية هذا الرأي خير تمثيل، بل لقد كان من أوائل مفكري الإسلام بحثًا وتساؤلاً عن أصل اللغة ونموّها واكتمالها، وراعى في بحثه الموضوع جميع الأبعاد المرتبطة بهذه المشكلة من أبعاد طبيعيّة، وتاريخيّة، واجتماعيّة، وعلميّة، بهدف تقديم صورة شاملة وواضحة تساهم في حل تلك الإشكاليّة القديمة - الحديثة. وقبل أن نتعرف

رأي الفارابي عن قرب في هذا المجال، نود أن نمر بسرعة على رأي اللغويين في الموضوع.

أصل اللغة عند اللغويين العرب:

لن نستقصي هنا آراء اللغويين العرب في موضوع أصل اللغة، وإنما نتوقف عند شخصيتين تمثلان، فيما نرى، المواقف والمذاهب التي راجت عند علماء اللغة في هذا الصدد. ونقصد بهما شخصية ابن فارس، ويمثل التوجّه الذي يقول إنّ اللغة توقيف، وإلهام، وشخصية ابن جني، ويميل إلى الرأي القائل إنّ أصل اللغة تواضع واصطلاح.

لقد عقد ابن فارس بابا في (الصاحبي) خصّه لموضوع لغة العرب أتوقيف هي أم اصطلاح. وأقر بأنها توقيف. واستدل على ذلك بمجموعة من الأدلة، ترمي كلّها إلى إثبات أنّ اللغة توقيف ووحي، وهي:

- قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾[1].
- «إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه. ثم احتجاجهم بأشعارهم. ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحًا لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج (بنا) لو اصطلحنا على لغة اليوم، ولا فرق».
- «لم يبلغنا أنّ قومًا من العرب في زمان يقارب زماننا أجمعوا على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عليه، فكنّا نستدل بذلك على اصطلاح (قد) كان قبلهم»[2].

أمّا ابن جني فقد عقد بدوره بابا في الخصائص، عنونه بـ «القول على أصل اللغة إلهام هي أم اصطلاح» عرض فيه الرأيين معًا، وحجج كل منهما مع مناقشتها. فبين أنّ استناد القائلين بالوحي والإلهام إلى الآية: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ لا يتناول موضع الخلاف؛ وذلك أنّه قد يجوز تأويل الآية: بـ «أقدر آدم على أن واضع عليها؛ وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة. فإذا كان ذلك محتملاً غير مستنكر سقط الاستدلال به»[3]، على أنه قد تفسر الآية بِـ: «أنّ الله سبحانه علم آدم أسماء جميع المخلوقات، بجميع اللغات: العربية، والفارسيّة، والسريانيّة، والعبرانيّة، والروميّة، وغير ذلك من سائر اللغات؛ فكان آدم وولده يتكلمون بها؛ ثم إنّ ولده تفرقوا في الدنيا، وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات، فغلبت عليه، واضمحلّ عنه ما سواها؛ لبعد عهدهم بها»[4]، وعلى هذا، يجب تبني هذا الرأي «والانطواء على القول به».

ويحتج من قال إنّ اللغة لا تكون وحيًا بأن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة. ولا تتحقق المواضعة إلا بالمشاهدة والإيماء، «والقديم سبحانه لا يجوز أن يوصف بأن يواضع أحدا من عباده على شيء؛ إذ قد ثبت أن المواضعة لا بد معها من إيماء وإشارة بالجارحة نحو المومأ إليه، والمُشار نحوه، والقديم سبحانه لا جارحة له، فيصحّ الإيماء، والإشارة بها منه؛ فبطل عندهم أن تصح المواضعة على اللغة منه، تقدست أسماؤه»[5]،

ويبدو أنّ ابن جني لا يتبنى موقفًا واضحًا، ولا يجزم بأحد الرأيين: الاصطلاح أو التوفيق. فبعد أن عرض أدلّة كل فريق على حدة، وتأمل حال هذه اللغة الشريفة، وما يوجد فيها من حكمة، ودقّة وإرهاف ورقّة، تكافأت عنده الأدلّة، فقال: «أقف

بين تين الخلتين حسيرًا، وأكاثرهما فأنكفئ مكثورًا. وإن خطر خاطر فيما بعد، يعلّق الكف بإحدى الجهتين، ويكفها عن صاحبتها، قلنا به، وبالله التوفيق»[٦].

وعلى خلاف ذلك، نجد الفارابي يتخذ موقفًا جريئًا في هذا المبحث، حيث ذهب إلى أنّ اللغة تواضع واصطلاح؛ أي إنها نتيجة للاتفاق الذي ينبع من احتياج الجماعة اللغويّة. فما اللغة عند الفارابي أولاً؟ وكيف تم التواضع عليها؟ وكيف نمت وتطورت حتى أصبحت لغة تعبّر عن تعاريج الفكر الفلسفي الشامل والفكر المنطقي المجرّد؟

أصل اللغة وتطورها عند الفارابي:

اللغة ملازمة للاجتماع البشري:

إذا عدنا إلى نصوص الفارابي نجده يشير في أكثر من موضع إلى أنّ الاجتماع البشري شيء فطري في النوع الإنساني. يذهب مثلا في كتاب (آراء أهل المدينة الفاضلة) إلى أن «الإنسان من الأنواع التي لا يمكن أن يتم لها الضروري من أمورها، ولا تنال الأفضل من أحوالها إلا بالاجتماع والتعاون، فكل واحد من الناس مفطور على أنهّ محتاج في قوامه، وفي أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء كثيرة، لا يمكنه أن يقوم بها كلّها هو وحده، بل يحتاج إلى قوم آخرين يقوم له كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه، وكل إنسان هو من الآخرين بهذه الحال»[٧].

إن الاجتماع البشري ضرورة طبيعيّة وغريزة فطريّة في الإنسان، ليتم له التعاون في حياته ومطعمه ومسكنه، ويتغلب على باقي الحيوانات بأصنافها المتعددة، ويجعل الكون وما فيه في خدمته بما يحقق سعادته وكماله. وتستتبع ضرورة الاجتماع الحاجة إلى «البيان» بتعبير الجاحظ، «الذي جعله سببًا فيما بينهم، ومعبرًا عن حقائق حاجاتهم، ومعرفًا لمواضع سد الخلة ورفع الشبهة، ومداواة الحيرة؛ ولأنّ أكثر الناس عن الناس أفهم منهم عن الأشباح الماثلة، والأجسام الجامدة»[٨].

والبيان الذي به يتعارف الناس معانيهم، والمترجم عن أغراضهم، لا يعدو أربعة أصناف، هي: اللفظ، والخط، والإشارة، والعقد. غير أن أسهل هذه الأصناف وأفيدها وأكثرها ليونة واستجابة لحاجات التعبير إنما هو استعمال الألفاظ. يقول ابن سينا في هذا الصدد: «ولما كانت الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركة والمجاورة، انبعثت إلى اختيار شيء يتوصل به إلى ذلك، ولم يكن أخفّ من أن يكون فعلاً، ولم يكن أخفّ من أن يكون بالتصويت، خصوصًا الصوت لا يثبت ولا يستقر ولا يزدحم، فتكون فيه مع خفته فائدة وجود الإعلام به مع فائدة انمحائه؛ إذ كان مستغنيًا عن الدلالة به بعد زوال الحاجة عنه، أو كان يتصور بدلالته بعده، فمالت الطبيعة إلى استعمال الصوت، ووفقت من عند الخالق بآلات تقطيع الحروف وتركيبها معًا؛ ليدل بها على ما في النفس من أثر»[٩].

وعدد فخر الدين الرازي الأسباب التي لأجلها كان التواصل بالألفاظ أسهل وأنفع، وأفيد من باقي أدوات التعبير الأخرى. فحصرها في ثلاثة أسباب؛ أحدها: «أنّ النفس عند الإخراج سبب لحدوث الصوت، والأصوات عند تقطيعاتها أسباب لحدوث

الحروف المختلفة، وهذه المعاني تحصل من غير كلفة ومعونة بخلاف الكتابة والإشارة وغيرهما، والثاني: أنّ هذه الأصوات كما توجد تفنى عقيبه في الحال، فعند الاحتياج إليه تحصل، وعند زوال الحاجة تفنى وتنقضي، والثالث: أنّ الأصوات بحسب التقطيعات الكثيرة في مخارج الحروف تتولد منها الحروف الكثيرة، وتلك الحروف الكثيرة بحسب تركيباتها الكثيرة يتولد منها كلمات تكاد أن تصير غير متناهية، فإذا جعلنا لكل واحد من المعاني واحدا من تلك الكلمات توزّعت الألفاظ على المعاني من غير التباس واشتباه، ومثل هذا لا يوجد في الإشارة والتصفيق، لهذه الأسباب الثلاثة قضت العقول السليمة بأن أحسن التعريفات لما في القلوب هو الألفاظ»[10].

وبالنظر إلى الأمور التي أتى على ذكرها الإمام فخر الدين الرازي، ولأنّ العلم باللغة وباشتقاقها وتصريفها وأنحاء دلالة الألفاظ على المعاني مدخل ضروري لفهم المقولات وإدراك أبعادها المعرفيّة والانطولوجية، اهتم الفارابي باللغة دون باقي أدوات التعبير والتواصل الأخرى. فوقف على نشأتها، وتعقب مراحل تطورها، مبينًا كيف أضحت لغة تعبر عن تعاريج الفكر المنطقي المجرد والمعاني الفلسفية الشاملة بعدما كانت لغة مرتبطة بما هو حسّي من المعاني وبحياة البداوة البسيطة.

نحو تعريف الفارابي للغة.

لن يجد الناظر في أعمال الفارابي تعريفًا مباشرًا ودقيقًا للغة، بل إشارات ومقاطع، تكشف عن طبيعتها وتحدد وظيفتها. فهي عنده نظام من العلامات الصوتية، تتكلمه جماعة لغوية معيّنة، بعد أن تتلقاه عن المجتمع الذي تحيا فيه، وتدل به على المحسوسات والمعقولات، وتعبر به عن المقاصد والأغراض، وتحقق به وظائف التواصل والإبلاغ. وهي إضافة إلى ذلك، دائمة التطور والثراء، تستجيب لحاجات الجماعة في التعبير عن مستجداتهم الحياتية اليومية، والصناعية، والفكريّة. ونميل إلى أن ابن جني كان يستحضر هذه الإشارات عندما قدم حدا دقيقًا للغة، حدا ضمنه طبيعتها المادية ووظيفتها التواصلية، وينطبق على جميع اللغات الطبيعية. يقول ابن جني معرفًا اللغة: «أما حدها، فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[11]. ولقد مرّت اللغة في تطورها بمراحل متعددة قبل أن تتبلور وتتخذ شكل نسق دال ومكتمل.

من الإشارة إلى الصوت.

لقد ميّز الفارابي في الفصل الثاني من كتاب (الحروف) بين العوام والخواص. وذهب إلى أنّ العوام والجمهور ومعارفهم أسبق زمنيًّا من الخواص وعلومهم، وأنّ هؤلاء العوام أول ما يحدثون ويكونون يكونون في بلد ومسكن محدود. كما صاغ مبدأ عامًّا يمكن تسميته بمبدأ البساطة، وبذل الجهد الأدنى. ومفاده أنّ الإنسان يفطر على صور وخلق في بدنه محدودة، ويكون معدًّا، ومسددًا نحو معارف، وتصورات، وتخيّلات بمقادير محدودة في الكمية والكيفيّة، وتنفعل نفسه إلى ما هو أسهل عليها، وتتحرك أعضاؤه إلى حيث الحركة أسهل عليها، وكل ذلك يكون بالفطرة وبملكة طبيعية. غير أنّه «إذا كرر فعل شيء من نوع واحد مرارًا كثيرة حدثت له ملكة اعتيادية، إما

خلقية أو صناعية»[١٢]. ولقد أشرنا أعلاه إلى أنّ اللغة تنشأ لحاجات التعاون والتواصل الإنسانيين. وقبل استعمال الأصوات كمادة مسموعة يتداخل فيها ما هو نفسي بما هو فيزيولوجي، كان الإنسان يستعمل - «إذا احتاج أن يعرف غيره ما في ضميره أو مقصوده بضميره» - الإشارة التي تقتضي، إضافة إلى طبيعتها المحدودة، حضور طرفي التواصل في مكان ما وعلى وضع خاص، بحيث تمكن أحدهما من رؤية الآخر. ثم استعمل الإنسان بعد ذلك «تصويتات مختلفة يدل بواحد منها على واحد مما يدل عليه بالإشارة إليه وإلى محسوساته، فيجعل لكل مشار إليه محدود تصويتًا ما محدودا لا يستعمل ذلك التصويت في غيره، وكل واحد من كل واحد كذلك»[١٣].

هنا نجد الفارابي يبيّن كيفية حدوث الأصوات بمنظور العالم الصوتي العارف مكوّنات الجهاز النطقي وأثرها في تشكيل الأصوات اللغويّة. فالأصوات إنما تحدث من القرع بهواء النفس بجزء أو أجزاء من أعضاء الجهاز النطقي: الحلق، أو الفم، أو باطن الأنف، أو أصول الأسنان، أو الشفتين الخ، وهذه هي الأعضاء المقروعة بهواء النفس. والقارع هو القوة التي تدفع هواء النفس من الرئة. فيتلقى اللسان ذلك الهواء ويضغطه إلى جزء من أعضاء الجهاز النطقي فتحدث تصويتات مختلفة ومحدودة دون عناء أو تكلّف.

نشوء الألفاظ واختلاف الألسن:

إنّ الحروف - حروف المعجم - تكون محدودة ومتناهية بينما المعاني تكون لا متناهية، لذلك لا تفي هذه الحروف بالدلالة على جميع ما يتفق أن يكون في ضمائرهم، فيلجأون حينئذ إلى تركيب بعضها إلى بعض بموالاة حرف حرفًا وفق قيود التأليف الخاصّة بالنسق اللغوي المعيّن. فتحصل علامات لسانيّة بعضها دال على أشخاص، وبعضها دال على معقولات. «وإنما يفهم من تصويت تصويت أنّه دال على معقول معقول متى كان تردد تصويت واحد بعينه على شخص مشار إليه، وعلى كل ما يشابهه في ذلك المعقول، ثم يستعمل أيضًا تصويتًا آخر على شخص تحت معقول آخر، وعلى كل ما يشابهه في ذلك المعقول»[١٤].

بهذه الطريقة التدريجيّة الارتقائيّة يفسّر الفارابي حدوث حروف الأمة وألفاظها الكائنة عن تلك الحروف. ولقد جهر بموقف جريء يخالف فيه موقف علماء العربية حينما أعلن بشكل واضح أنّ أصل اللغات إنما هو الاصطلاح والتواطؤ، وأنّ ذلك يكون ممن اتفق من أهل تلك الأمة. «فيتفق أن يستعمل الواحد منهم تصويتًا أو لفظة في الدلالة على شيء ما عندما يخاطب غيره، فيحفظ السامع ذلك، فيستعمل السامع ذلك بعينه عندما يخاطب المنشئ الأول لتلك اللفظة، ويكون السامع الأول قد احتذى بذلك فيقع به، فيكونان قد اصطلحا وتواطئا على تلك اللفظة، فيخاطبان بها غيرهما إلى أن تشيع عند جماعة»[١٥]. وهكذا كلما احتاج أحدهم أن يفهم غيره ما في ضميره أو يعبر عن مراده اخترع تصويتًا يدل به على مراده أو شعوره أو فكره، فيحفظ منه السامع ذلك التصويت، ويجعلاه دالاً عليه. ويستمر الأمر على هذه الحال من الاختراع حسب الحاجات، ومستجدات الحياة اليوميّة «إلى أن يحدث من يدبر أمرهم، ويضع

بالأحداث ما يحتاجون إليه من التصويتات للأمور الباقية، التي لم يتفق لها عندهم تصويتات دالة عليها. فيكون هو واضع لسان تلك الأمة. فما زال أول ذلك يدبر أمرهم إلى أن توضع الألفاظ لكل ما يحتاجون إليه في ضرورية أمرهم»[١٦].

ويعتمد الفارابي على عامل البيئة ومبدأ الحركة نحو الأسهل الفطري في الإنسان لتفسير اختلاف الألسن واللغات. «فالذين هم في مسكن واحد، وعلى خلق في أعضائهم متقاربة، تكون ألسنتهم مفطورة على أن تكون أنواع حركاتها إلى أجزاء أجزاء من داخل الفم أنواعًا واحدة بأعيانها، وتكون تلك أسهل عليها من حركاتها إلى أجزاء أخر. ويكون أهل مسكن وبلد آخر، إذا كانت أعضاؤهم على خلق وأمزجة مخالفة لخلق أعضاء أولئك، مفطورين على أن تكون حركة ألسنتهم إلى أجزاء أجزاء من داخل الفم أسهل عليهم من حركتها إلى الأجزاء التي كانت ألسنة أهل المسكن الآخر تتحرك إليها، فتخالف حينئذ التصويتات التي يجعلونها علامات يدل بها بعضهم بعضا على ما في ضميره مما كان يشير إليه وإلى محسوسه أولاً. ويكون ذلك هو السبب الأول في اختلاف ألسنة الأمم. فإن تلك التصويتات الأولى هي الحروف المعجمة»[١٧].

اكتمال اللغة:

حينما تصل اللغة إلى هذه المرحلة من التطور، وتوضع الألفاظ للدلالة على الأمور المحسوسة، وعلى ضروريات حياة الأمة، يصوغ الفارابي مبدأ انتظام الألفاظ بحسب انتظام المعاني أو محاكاة الألفاظ للمعاني. وهو مبدأ يخالف فيه أولا رأي النحاة بخاصّة والبيانيين بعامة؛ فإذا كان هؤلاء ينطلقون من اللّفظ، ويجعلون المعنى تابعًا له، فإن الفارابي، على عكس ذلك، يجعل اللفظ تابعًا للمعنى التابع بدوره للموجود. ويفسّر به ثانيًا سبب حدوث الألفاظ العامّة، والمشككة، والمشتركة والمترادفة. ولهذا المبدأ تعلق بطبائع الأمم، فالأمة إن كانت على اعتدال، وكانت مائلة إلى الذكاء والعلم «طلبوا بفطرهم من غير أن يتعمدوا في تلك الألفاظ التي تجعل دالة على المعاني، محاكاة المعاني، وأن يجعلوها أقرب شبها بالمعاني والموجود، ونهضت أنفسهم بفطرها لأن تتحرى في تلك الألفاظ أن تنتظم بحسب انتظام المعاني على أكثر ما تتأتى لها في الألفاظ، فيجتهد في أن تُعرب أحوالها الشبه من أحوال المعاني»[١٨]. ويجري هذا المبدأ بعينه في الألفاظ المركبة حيث يتحرى أن تكون مشابهة لتركيب المعاني ما أمكن الشبه. لما تستقر الألفاظ المتباينة والمترادفة والمشتركة على المعاني التي جعلت علامات لها، يبدأ الناس في النسخ والتجوز في العبارة عن المعاني مع مراعاة المناسبة بين هذه المعاني كيفما كانت هذه المناسبة، ولو كانت يسيرة، إما لشبه بعيد، وإما لغير ذلك. «فيحدث حينئذ الاستعارات والمجازات والتجرد بلفظ معنى ما عن التصريح بلفظ المعنى الذي يتلوه متى كان الثاني يُفهم من الأول، وبألفاظ معان كثيرة يصرح بألفاظها عن التصريح بألفاظ معان أخر إذا كان سبيلها أن تقرن بالمعاني الأول متى كانت تُفهم الأخيرة مع فهم الأولى، والتوسع في العبارة بتكثير الألفاظ، وتبديل بعضها ببعض، وترتيبها وتحسينها. فيبتدئ حين ذلك في أن تحدث الخطبية أولاً ثم الشعريّة قليلا قليلاً»[١٩].

تلك إذًا هي حروف الأمّة وألفاظها الكائنة عنها وأقاويلهم المؤلفة من ألفاظهم. فيتعودون على استعمالها، والنطق بها حتى تتمكن فيهم وتصبح ملكة لهم، فتستنكر ألسنتهم كل لفظ سواها، وكل تركيب لتلك الألفاظ غير التركيب الذي تمكن فيهم، وكل ترتيب للأقاويل سوى ما اعتادوه. ويعمدون إلى جمع هذه اللغة وتدوينها لحفظها، وتسهيل عملية تعليمها وتعلّمها ونقلها من ثمّ من جيل إلى جيل. فكيف تم جمع اللغة؟ وما المعايير المعتمدة في ذلك؟.

عندما تصل اللغة إلى هذه الدرجة من النضج والكمال، تظهر عند الأمّة حاجات تحوجهم إلى الصناعات العاميّة؛ وهي صناعة الخطابة، والشعر، والقدرة على روايات الأخبار، والأشعار، والأيام، والكتابة، وعلوم اللسان. ولا تحدث هذه الصنائع دفعة واحدة، بل تتمرحل في نشأتها. وتأتي علوم اللسان في المرحلة الأخيرة من سلسلة ظهورها، بعد جمع اللغة الفصيحة، وتدوينها؛ لتصبح متنا قابلا للدرس والتأمل واستخراج القوانين. وهذا ما يستدعي معرفة من ينبغي أن يؤخذ عنه اللسان وتحديده. في هذا الإطار يسوق الفارابي معيارا عامًّا يحدد بموجبه الشروط التي يجب توافرها فيمن ينبغي الأخذ عنه، وهي شروط ترمي إلى تحقيق المستوى الفصاحي. فاللسان «ينبغي أن يؤخذ عن الذين تمكنت عادتهم لهم على طول الزمان في ألسنتهم وأنفسهم تمكنًا يحصّنون به عن تخيّل حروف سوى حروفهم، والنطق بها، وعن تحصيل ألفاظ سوى المركبة عن حروفهم، وعن النطق بها ممن لم يسمع غير لسانهم ولغتهم أو ممن سمعها وجفا ذهنه ولسانه عن النطق بها»[٢٠]. ومن شأن مراعاة هذا المعيار أن يضمن صفاء اللغة وفصاحتها، ويبعد الخطأ واللحن والعجمة. وبالمقابل، استبعد الفارابي الأخذ عمّن كان لسانه مطاوعًا على النطق بأي حرف شاء مما هو خارج عن حروفهم، وبأي لفظ غير ألفاظهم، وبأي قول مركّب سوى أقاويلهم. والخطأ يكون أسرع إلى لسان من جاور أو نطق بلسان أمة مجاورة للأمة الأصل.

وبالنزعة التعميمية نفسها يقسم الفارابي الأمة إلى نوعين من السكان: سكان الخيام، والبراري، وسكان المدن والقرى. ولكل نوع من هؤلاء خصائص لسانية وطبعيّة معيّنة. وبموجب هذه الخصائص يكون لسان سكان البراري والأحسية أصفى وأفصح، وطباعهم «أجفى، وأبعد من أن يتركوا ما قد تمكن بالعادة فيهم، وأحرى أن يحصنوا نفوسهم عن تخيّل حروف سائر الأمم وألفاظهم، وألسنتهم عن النطق بها وأحرى أن لا يخالطهم غيرهم من الأمم للتوحش، والجفاء الذي فيهم»[٢١]. بينما يكون سكان المدن والقرى وبيوت المدر أسرع للتعايش مع غيرهم، وتكون نفوسهم «أشد انقيادًا لتفهم ما لم يتعودوه، ولتصوره، وتخيله وألسنتهم للنطق بما لم يتعودوه». لذلك كان من الأفضل أن تؤخذ لغة الأمّة عن سكان البراري، ويتحرّى منهم من كان في أوسط بلادهم.

يأخذ الفارابي هذا المبدأ العام وما يستوجبه من شروط ليطبقه على لغة العرب، حيث الأمّة العربية تشتمل على النوعين من السكان المُشار

إليهما أعلاه؛ يقول أبو نصر الفارابي: «وأنت تتبين ذلك متى تأملت أمر العرب في هذه الأشياء. فإن فيهم سكان البراري وفيهم سكان الأمصار. وأكثر ما تشاغلوا بذلك من سنة تسعين إلى سنة مائتين. وكان الذي تولى ذلك من بين أمصارهم أهل الكوفة والبصرة من أرض العراق. فتعلموا لغتهم والفصيح منها من سكان البراري منهم دون أهل الحضر، ثم من سكان البراري من كان في أوسط بلادهم، ومن أشدهم توحّشًا وجفاء وأبعدهم إذعانا وانقيادا، وهم قيس وتميم وأسد وطيئ ثم هذيل، فإن هؤلاء معظم من نقل عنهم لسان العرب. والباقون لم يؤخذ عنهم شيء؛ لأنهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم، مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المطيفة بهم من الحبشة، والهند، والفرس، والسريانيين، وأهل الشام، وأهل مصر»[٢٢].

لقد حدد الفارابي في هذا النص الحقبة الزمنيّة التي تم فيها جمع اللغة وتدوينها، كما عيّن من تولى القيام بهذه المهمّة، وحصر بشكل واضح القبائل التي أخذ عنها اللسان العربي، وهي: قيس، وتميم، وطيئ، وهذيل. وأضاف صاحب (المزهر في علوم اللغة وأنواعها). فيما نقله عن الفارابي (بعض كنانة). وتذهب زينب عفيفي إلى أن الفارابي إذا كان يؤكد دور علماء البصرة والكوفة في تدوين اللغة، «فإنّه أيضًا يؤكد أن قريشًا كانت أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها سموعًا وإبانة عمّا في النفس»[٢٣]. ونحن لم نجد ذكرًا عند الفارابي لقبيلة «قريش»، كما أنّ الشروط التي اشترط تحققها فيمن يؤخذ عنه اللسان لم تتوافر فيها، وهي القبيلة التي كانت أكثر من غيرها مخالطة للقبائل والأقوام. ولعل ما جعل زينب عفيفي تقول بذلك هو ما وجدته في كتاب (المزهر)، حيث يقول السيوطي: «وقال أبو النصر الفارابي في أول كتابه المسمّى (بالألفاظ والحروف): «كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعًا، وأبينها إبانة عمّا في النفس»[٢٤]. وربما أنّ ما جعل السيوطي ينسب إلى الفارابي هذا الرأي ما رآه متداولاً في كتب اللغة من أنّ أهل قريش أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة، وهذا حكم لا يستند إلى معايير طبيعيّة أو بيئيّة، أو تاريخيّة، وهي المعايير المعتمدة عند الفارابي، وإنما يستند إلى معايير العقيدة، والنسب، والنفوذ السياسي، والاقتصادي[٢٥].

خاتمة

والحاصل أنّ الفارابي نظر إلى اللغة على أنها نسق من العلامات الصوتيّة، تواضع الناس عليه للتعبير عن أغراضهم، ومقاصدهم، وتحقيق أهداف التواصل والإبلاغ. كما عدّها كائنًا حيًّا دائم النمو والتطور، يستجيب لمستجدات الأمّة الحياتيّة، ومتطلباتها الفكريّة. لذلك عمل على تتبع تطور اللغة بعامّة واللسان العربي بخاصّة من كونه لسان العامّة إلى كونه لسان الخاصّة، وما صاحب ذلك من ظهور للصنائع العاميّة من خطابة، وشعر، ورواية أخبار، وكتابة، وعلوم لسان. وسهر في كل ذلك على صياغة مبادئ، وقوانين عامّة تنطبق على جميع اللّغات. ولا شك أن هذه الآراء قد لقيت قبولاً واستحسانًا عند علماء اللغة. ■

الحواشي

١- البقرة:٣١.
٢- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية في كلامها:٦-٨.
٣- الخصائص: ١/٤٠- ٤١.
٤- المصدر نفسه: ١/٤١.
٥- المصدر نفسه: ١/٤٥.
٦- المصدر نفسه: ١/٤٧.
٧- آراء أهل المدينة الفاضلة: ٩٦.
٨- الحيوان: ١/٤٤.
٩- الشفاء:٢.
١٠- التفسير الكبير: ١/٢٥.
١١- المصدر نفسه: ١/٣٣.
١٢- الحروف: ١٣٥.
١٣- المصدر نفسه:١٣٦.
١٤- المصدر نفسه:١٣٧.
١٥- المصدر نفسه:١٣٧.
١٦- المصدر نفسه: ١٣٨.
١٧- المصدر نفسه:١٣٦-١٣٧.
١٨ المصدر نفسه:١٣٨-١٣٩.
١٩- المصدر نفسه:١٤١.
٢٠- المصدر نفسه:١٤٥.
٢١- المصدر نفسه:١٤٦.
٢٢- المصدر نفسه:١٤٧.
٢٣- فلسفة اللغة عند الفارابي:١٦٩.
٢٤- المزهر في علوم اللغة وأنواعها:١/٢١١.
٢٥- ويعلل ابن فارس - مثلا- كون قريش أفصح العرب بـ «أنّ الله جلّ ثناؤه اختارهم من جميع العرب، واصطفاهم، واختار منهم نبي الرحمة محمدًا، ﷺ. فجعل قريش قطان حرمه، وجيران بيته الحرام، وولاته. فكانت وفود العرب من حجاجها، وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم. وكانت قريش تعلمهم مناسكهم، وتحكم بينهم.
ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم وتسميتها: أهل الله؛ لأنهم الصريح من ولد إسماعيل عليه السلام، لم تشبهم شائبة، ولم تنقلهم عن مناسبهم ناقلة، فضيلة من الله - جل ثناؤه- لهم وتشريفا. إذ جعلهم رهط نبيه الأدنين، وعترته الصالحين. وكانت قريش - مع فصاحتها وحسن لغتها ورقّة ألسنتها- إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم. فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها. فصاروا بذلك أفصح العرب». الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية في كلامها:٣٣-٣٤.

المصادر والمراجع

١- **آراء أهل المدينة الفاضلة**، لأبي نصر الفارابي، تح. ألبير نصري نادر، ط٥، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٥.
٢- **التفسير الكبير**، للإمام فخر الدين الرازي، ط٢، دار الكتب العلمية، طهران، د.ت.
٣- **الحروف**، لأبي نصر الفارابي، تح. محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، ١٩٦٩م.
٤- **الحيوان**، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح. عبد السلام محمد هارون، ط٢، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٦٥م
٥- **الخصائص**، لأبي الفتح عثمان بن جني تح. محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، د.ت.
٦- **الشفاء - المنطق- العبارة**، لأبي علي ابن سينا، تح. محمود الخضيري، تصدير ومراجعة إبراهيم مدكور، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٠.
٧- **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية في كلامها**، لأبي الحسين أحمد بن فارس، تح. أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، د.ت.
٨- **فلسفة اللغة عند الفارابي**، لزينب عفيفي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.
٩- **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، لجلال الدين السيوطي، ت. محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.